هوامش

في الأعوام الأخيرة، لاقت الأغنية الصوفية رواجاً كبيراً، سواءً بين المغنين، أو بين المستمعين. أسماء لمغنين وفرق كثيرة طفت على السطح، وراحت تحيي الحفلات. هنا، وقفة عند هذا اللون الفني

الفنان ظافر يوسف أحد ابرز الأسماء العربية في الغناء الصوفي (Getty)

الأغنية الصوفية
أصوات من نبع مجهول

أشرف الحساني

يعترف المُؤرّخ المغربي عبد الله العروي، أنّ التصوّف ثروة كبيرة. لكنّه سرعان ما يتردّد في كلامه، وتُراوده الشكوك حول هذا التراث الصوفي، وكيف يُمكن أنْ يخدم ويحلّ معضلاتنا التاريخيّة اليوم؟ رغم هذه النظرة الواقعية والمادية المألوفة لدى العروي، فهي تظلّ في حاجةٍ إلى التفكير والمساءلة، إذ إنّ التراث الفني الصوفي اكتسح مجالاته المُبكّرة، التي نشأ وترعرع فيها داخل الزوايا والرباطات، مُنتقلاً فنياً من حياته الأولى ذات الارتباط بإنشادٍ تقليديّ في يد رجال فقهاء بمجالس دينية للتبرّك والعبادة، صوب أبعادٍ أكثر تحرراً من الطابع اللاهوتي، إبان ما سُمي بـ «الحركة المولوية» مع جلال الدين الرومي خلال القرن الثالث عشر. وانتقل الرهان خلال القرن العشرين إلى تعبيراتٍ فنية كثيرة، استطاعت الموسيقى العربيّة، أنْ تكون التعبير الفني الأكثر اشتغالاً على هذا الموروث الصوفي، ومُحاولة احتواء بعض منه داخل أغانٍ وقوالب موسيقية وخاماتٍ إنشادية. هذا الأمر، لم يكُن معمولاً به طيلة المسار الجريح للتصوّف في تاريخ العرب. رغم مظاهر الإقبال التي حظي بها الإنشاد الصوفي، من لدن الأوساط الشعبية، التي كانت تجد في هذا الإنشاد فتنة لا مثيل لها للتوغّل أكثر في محبة الله والتبرّك بالصمت والخلوة، إلا أنّ أغلب المُتصوّفة، ممن تبنوا هذه الطريقة المولوية، كانوا عرضة للإبعاد والتهجير والنفي من لدن القوى السياسية في عصرهم. النصّ الفني الصوفي هو نصٌّ ملغومٌ مُضمّخٌ برؤى وأحاسيس لحظية غير مفهومة، ويختزن في طيّاته الكثير من الرموز والعلامات، التي لا يعرفها إلاّ الصوفي. هذا كله جعل السلاطين يتهمون هؤلاء المُتصوّفة وممارساتهم الإنشادية بالكفر والبدع والجحد والزندقة. ومع ذلك، ظلّت الكثير من الفرق والجماعات داخل الرباطات الدينية، ولا سيما في بلاد المغرب الأقصى (المغرب حالياً) تُمارس هذا النوع من الإنشاد الديني، الذي يعتمد على قصائد وأدعية، وعلى رقصاتٍ كوريغرافية.

يُمكن اعتبار جلال الدين الرومي أوّل من مارس ذلك من خلال «الرقصة المولوية» أو «الرقصة الدائرية» فوق نقطة واحدة، يتحدّد بموجبها مرمى الوجود لتأمّل أسراره، في محاولة خلق تماهٍ بين الوجود والجسد، بغية الوصول إلى كمالٍ لامتناهٍ، تتحرّر عبره النفس من أهوال المادة وكلّ ما يربطها بعالم الموجودات على حدّ تعبير ابن عربي.

منذ منتصف القرن العشرين، انتقلت الأغنية الصوفية من أطوارها التقليدية إلى مراحل مُتقدّمة من الإبداع الفني. فالانحسار الإبداعي الذي وصلت إليه الأغنية العربيّة في السنوات الأخيرة، جعلها تبحث عن منافذ ضوءٍ جديدة لاجتراح لغتها وتجديد موضوعاتها وخاماتها وقوالبها الموسيقية.

على مستوى التأليف الغنائي، استطاعت بعض التجارب الغنائية العربيّة، أنْ تتحرّر قليلاً من إسار الوجود الغربي في تأليفها، جاعلة من الموروث الصوفي عنصراً جمالياً، به تنطبع التجربة وتحفر مسارها وخصوصياتها الفنية داخل نسق الأغنية العربيّة المعاصرة. هكذا، كان هذا التراث الصوفي الغنيّ أكثر المنابع الجمالية للأغنية العربيّة، سواء عن طريق تأليف قصائد وأغانٍ على نفس المنوال، أو استلهام قصائد شعريّة كُتبت منذ القرن الثالث عشر مع تجديدها وموضعتها داخل قالب موسيقيّ معاصر، يمزج بين حداثة الآلة وقدامة كلمةٍ ساحرة تتوغّل أكثر في مسارب الجسد.

هذا كله، جعل الأغنية الصوفية، تُشكّل اليوم تياراً فنياً وجمالياً، لا يُمكن استبعاده أو نفيه في تشكيل خصوصيات الأغنية العربيّة، منذ بداياتها في مصر على يد المشايخ داخل بعض الرباطات والزوايا والحفلات الدينية التعبدية، وصولاً إلى نهضتها الفنية البارزة على سطح الأغنية المعاصرة داخل الوطن العربيّ، والتي حاولت جملة من التجارب إبراز معالمها داخل ريبرتوارها الغنائي.

والحقيقة أن مسألة التجديد التي وسمت بعض التجارب العربيّة (سامي يوسف وأحمد حويلي وعبد الرحمن محمد وظافر يوسف ورشا ناجح وهند حامد)، لم تُبارح اجتهاداتها على مستوى الكلمة والأداء وخاماته الصوتية. لم تتجرأ هذه الأسماء على الآلة الموسيقية، وتنزع عنها قداستها الغربيّة، عبر إيقاعات فنية وتوليفاتٍ جمالية مُبتكرة، غير مُنفصلة عن الكلمة وجملها اللحنية.

وهذا الأمر، جعل مسألة التجديد تبقى سطحية بالنظر إلى جوهر الأغنية الصوفية وما تحمله من خرق داخليّ. ومع ذلك، لن ننكر أنّ هذه التجارب، ما تزال ناجحة على أكثر من صعيد، بما تنضح به من براعة الصوت وجماليّات الفيديو كليب وقدرتها على الحفر في المخزون الجمالي لهذا التراث الصوفي، واستلهام قصائد وجعلها تعيش حياة ثانية أكثر معاصرة.

باختصار

أغلب المُتصوّفة ممن تبنّوا الطريقة المولوية، كانوا عرضة للإبعاد والتهجير والنفي من لدن القوى السياسية في عصرهم

■■■

استطاعت بعض التجارب الغنائية العربيّة، أنْ تتحرّر قليلاً من الوجود الغربي في تأليفها، جاعلة من الموروث الصوفي عنصراً جمالياً

■■■

التراث الصوفي هو منبع جمالي للأغنية العربيّة، سواء عن طريق تأليف قصائد وأغانٍ على نفس المنوال، أو استلهام قصائد شعريّة كُتبت قديماً

وأخيراً

نساء نصَّابات

سما حسن

كان ممكناً أن يصير العنوان أعلاه بكلمات أخرى، مثل «نساء صغيرات»؛ تيمُّنًا برواية الأميركية لويزا ماي ألكوت، والتي تتبَّعت حياة أخوات عائلة مارش الأربع اللاتي كنَّ يعشن مع أمِّهن، خلال الحرب الأهلية، وبعد مرض والدهن، أصيبت إحداهن بحمّى، وبدأت العائلة تمرُّ بضائقةٍ ماديّة، إلى أن تمكَّنت الأخوات الثلاث الباقيات من بناء حياة سعيدة لأنفسهن؛ بسعيهن وكدِّهن، واستغلال ما يملكن من قدرات ومواهب.

ولكن الحديث هنا عن النساء النصَّابات، اللاتي خرجن من عباءة الفقر، بالتأكيد، مثل أخوات عائلة مارش، ولكنهن خرجن، أيضًا، من عباءةٍ مهترئةٍ لأسرةٍ لا تقيم وزنًا لقيم، ولا أخلاق، وربما كان الأب محدود الدخل، قليل الحيلة، والأم لديها أحلامها وتطلُّعاتها، وترى ابنتها التي كانت تلهو يومًا بدميتها قد أصبحت شابَّةً جميلةً بقوام بديع، ووجه جميل؛ فتقرِّر مع الأب استثمار هذه المنحة المجَّانية، والنتيجة أن تصبح الابنة سلعةً يتاجر بها الوالدان؛ بغرض كسب المال، وبعد أن وجدت الفتاة مؤهِّلات طبيعية، وعوامل مساندة وداعمة، فتوفَّرت النواة والأداة. في زمنٍ مضى، كنَّا دائمًا نسمع عن نساءٍ وقعن ضحيَّة النصب والابتزاز والاستغلال من الرجال. وفي حادثةٍ لا أنساها، قتل أحدُهم صديقه المقرَّب؛ لأن هذا الصديق أراد أن يتباهى، أمام صديقه، بأنه «جان»، حسب مسمَّيات الشاب المتعدِّد العلاقات؛ فأبرز أمامه صورة فتاةٍ وقعت في غرامه، وأهدته صورتها (بالأبيض والأسود، بالطبع)، فإذا بها صورة شقيقة الشاب الذي انهال طعنًا على صديقه. الحادثة، أو الحكاية، ظلَّت، فترة طويلة، حديث المجالس في بيوتنا، وحذَّرتنا أمهاتنا من مغبَّة التفريط بصورةٍ شخصية، مثل صورة الشهادة المدرسية؛ لأنها قد تقع في يد أحدهم، فيستغلُّها أسوأ استغلال، فحتى وقتٍ قريبٍ كانت صورة المرأة مقدَّسة. ومع الانفتاح الكبير، على عالم «السوشيال ميديا»، أصبحت صور النساء منتشرةً ومباحةً ومستباحة، وأصبح الممنوع مسموحًا، بل وتباهى الآباء والأمهات بنشر صور بناتهم، ولم تعد الصورة مَجْلَبة للعار. ومقابل ذلك تطوّرت آليَّات النصب من الجنسين، وتزايدت حوادثها بسبب عدم وصول معظمها إلى القضاء.

وظهرت حالاتٌ ليست قليلة لنساء يمتهنّ النصب، ويقع الأزواج والرجال عامة ضحايا، وكأن بعض النساء قد قرَّرن فعلًا الانتقال من خطَّة الدفاع إلى موقع الهجوم، فليس ببعيد خبر تعرُّض شبابٍ للابتزاز من فتاة استدرجتهم، من خلال مواقع الإنترنت، وحصلت على صور لهم، في أوضاعٍ مخلَّة، وباتت تهدِّدهم بفضحهم، إن لم يرضخوا لطلَباتها، وهي تحويل مبالغ مالية لها، بطرق مختلفة، بحيث تكون في وضع الأمان. ولذلك أنت اليوم ترفع حاجبيك، دهشةً أمام تقدُّم رجالٍ قلة ببلاغاتٍ عن تعرُّضهم للنصب من النساء، في صورةٍ معكوسةٍ لما اعتدنا عليه، وهو نصب الرجال على النساء. وهناك

> تطوّرت آليّات النصب من الجنسين، وتزايدت حوادثها بسبب عدم وصول معظمها إلى القضاء

حالاتٌ مسجَّلة لقيام نساء بعمليات نصب، تحت مسمَّى الزواج، والحصول على أموال، على شكل مهر وهدايا، ثم افتعال المشكلات والحصول على الطلاق، والنتيجة أن يتنازل الشاب عن ماله؛ لكي ينفد بجلده، وتُكرِّر الفتاة السيناريو نفسه مع شباب آخرين.

بكلِّ أسف ومرارة، تكتشف أن كسْبَ المال الذي ليس جريمة، بكلِّ المقاييس، ولكنه هدفٌ يتطلَّب السعي والتعب والمثابرة، قد أصبح غاية، واللهاث وراء الكسب السريع غدا حذاقةً، فانبثقت عمليات النصب التي يقوم بها الجنسان، ومع شهوة الكسب السريع، هناك الأداة المتاحة لذلك، وهي عدم وجود خصوصيةٍ في حياة الإنسان، بحيث أصبح صيدًا سهلًا، من خلال عالم تحوَّل قرية صغيرة، ليست هادئة ولا هانئة، ولكنَّها قرية من المستغلِّين وضعاف النفوس والمبتزِّين، والباحثين عن الشهرة، على حساب الآخرين، فالثغرات الكثيرة تجعل الفأر يصفِّق زجلًا، بأنه سيحصل على قطعة الجبن، بلا تعب، بعد أن استهنَّا بعاداتنا وتقاليدنا وقيمنا، وبعد أن كان الأب «يخطب لبنته»، إن رأى في عامل، أو أجير لديه، خيرًا؛ من صلاح وخلُق، تحوَّل الأب مع ابنته إلى القنص والاصطياد، معزِّزين بصور زائفة، في عالم زائف.

سعر النسخة: مصر **جنيهان**، تونس **900 مليم**، لبنان **1000 ليرة**، قطر **3 ريالات**، السعودية **3 ريالات**، الكويت **200 فلس**، الإمارات **3 دراهم**، عمان **300 بيزة**، البحرين **300 فلس**، الأردن **400 فلس**، العراق **500 دينار**، المغرب **4 دراهم**، الجزائر **ديناران**، اليمن **50 ريالاً**، سورية **25 ليرة**، السودان **10 جنيهات**، ليبيا **200 درهم**، موريتانيا **35 أوقية** ◻ UK **£ 1,20**, Austria **€ 2,20**, Belgium **€ 2,20**, France **€ 2,20**, Germany **€ 2,30**, Holland **€ 2,30**, Italy **€ 2,10**, Spain **€ 2,20**, Switzerland **CHF 3,50**
Turkey **TL 5,00**, USA **$ 2,00**